مبررات التجديد في الفكر الإسلامي في العصر الحديث
الاستشراق أنموذجا

Justifications for renewal in Modern-day Islamic thought
Orientalism is a model

الباحث بوقبرين مصطفى
جامعة الجزائر1
البريد الالكتروني: safaboukabrine@gmail.com

الملخص:

لقد عرفت ساحة الفكر والعلوم الإسلامية على مرّ عصورها المختلفة دعوات للتجديد إنْ على مستوى الشكل أو على مستوى المضمون، وكان هذا نتيجة للتجاذبات الفكرية بين مختلف المدارس والشخصيات والعصور، وقد تزايدت هذه الدعوات في عصرنا الحديث بشكل ملحوظ إمّا من طرف المدارس الفكرية أو من طرف منظومات الحكم القائمة، ولقد كان الاستشراق أحد مسبّبات التّجديد في الفكر الإسلامي لما أثاره من دعوات لذلك، إمّا من خلال الدعوة المباشرة للتجديد أو من خلال التّلفيقات التي وضعها في مصادر العلوم الإسلامية ممّا استدعى الأمة بعلمائها ومفكريها لإعادة قراءة هذه المصادر بغية تمحيصها وإعادة تحقيقها وضبطها، ونحن إذ نكتب هذه الورقة البحثية نودّ من ورائها كشف أحد أهم مبررات دعوات التجديد في الفكر الإسلامي في عصره الحديث؛ لإخراج هذا الفكر بوجهه الناصع المعتدل، الذي يحمل في طيّاته الإسلام الذي يتماشى مع العصور المختلفة دون أن يكون حجر عثرة في طريق تطور الأمة الإسلامية.

الكلمات المفتاحية: مبررات – التجديد- الفكر الاسلامي- الاستشراق

ABSTRACT

Over its various eras, the Islamic field of thought and science has known calls for renewal at the level of form or at the level of content, and this was the result of intellectual tensions between

المنارة للاستشارات

different schools, personalities and ages, and these calls in our modern era have increased significantly either by intellectual schools or by existing systems of government, and orientalism has been one of the reasons for the renewal of Islamic thought because of the calls it raised, either through direct call for renewal or through the fabrications it has placed in the sources of Islamic sciences. This has called on the nation with its scientists and intellectuals to reread these sources in order to scrutinize, re-investigate and control them, and as we write this research paper we would like to reveal one of the most important justifications for the calls for renewal in Islamic thought in its modern era, to bring out this thought with its bright and moderate face, which carries with it Islam, which is in line with different ages without being a stumbling block in the way of the development of the Islamic nation.

Keywords: Justifications - Renewal - Islamic Thought - A Spark

مقدمة:

قال رسول ﷺ في رواية أبي هريرة رضي الله عنه: " إنّ الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها."[1] اعتُبِر هذا النص على مر التاريخ الإسلامي إيذانا للأمة بعلمائها ومفكّريها وفِرقها المختلفة بالدعوة للتجديد في الفكر والعلوم والمعارف الإسلامية.

ونحن جميعا – أعني المسلمين- نؤمن أنّ الإسلام دين الله تعالى للناس أجمعين، ختم به رسالته بنبيه محمد ﷺ ، ونعلم أن الإسلام هو شِرعة الله الخالدة إلى يوم الدين، ونوقن أنه صالح لكل زمان ومكان، فما من نبي إلاّ وبعثه الله تعالى ليبلّغ رسالة الإسلام لله تعالى إلى قومه، فهو قديم قدم رسالة التوحيد لله تعالى، جديد متجدد مع الأزمنة والأمكنة، هدفه تيسير حياة الناس وإيصال النفس البشرية لمعرفة الله تعالى، إلا أنّ هذا

(1) أخرجه أبو داود، سليمان بن الأشعث السجستاني الأزدي، سنن أبي داود، تح: محي الدين عبد الحميد، دار الفكر، بيروت، كتاب الملاحم، باب "ما يذكر في قرن المائة"، ج4، رقم الحديث: 4291، ص109.

المنارة للاستشارات

الفهم الذي هو قارّ عندنا لا نجده عند هؤلاء المستشرقين بحكم اختلاف الرؤى بيننا وبينهم سواء في المعتقد بحد ذاته، فلا يجمعنا معتقد واحد، وبهذا يحدث الاختلاف في التعامل مع الإسلام، وهو ما نلمحه في جل كتاباتهم وإنتاجاتهم المعرفية والبحثية حول الإسلام، أو في نوع البيئة في حد ذاتها، فنحن أبناء الشرق وهم أبناء الغرب ولهاتين البيئتين تأثيرهما الواضح على كلا الفريقين.

وممّا يجب أن نتّفق عليه كذلك على أنه محلّ اختلاف بيننا وبينهم؛ مفهوم التجديد في الفكر الإسلامي وفي الدين كذلك – وأعني بذلك بين المسلمين وبين الغرب وعلى وجه الخصوص طائفة المستشرقين– فنحن لا نتّفق وإيّاهم على قاعدة واحدة ثابتة لننطلق منها حتى يحصل الاتفاق في مسألة التجديد وكيف يكون ذلك، وهذا مردّه إلى ما ذكرناه من اختلاف المعتقدات والبيئة وطرائق التفكير والرؤية للإسلام في حدّ ذاتها، وهنا محل الشاهد من فقدان أرضية الانطلاق المشتركة بيننا وبينهم، فبالرجوع إلى بيئتنا الإسلامية، سنجد أنّ أكثر المفكّرين الإسلاميين تحمّسا للمناهج الغربية الحديثة وطلبا لتطبيقها على الإسلام ومباحثه من أمثال (د.صالح هاشم ود.محمد أركون) وهما المعروفان بتحررهما الفكري الكبير، وإعجابهما الشديد بحضارة الغرب، إلاّ أنهما ينتفضان يحملان سيوف الدفاع عن الإسلام إذا استشعرا خطرا محدقا به من طرف هؤلاء المستشرقين، ويصبحان إسلاميَّيْن لا تستطيع تفرقتهما عن بقية الإسلاميّين المعتدلين أو الأصوليين، بل أكثر من ذلك تجدهما يحطّان من قيمة الاستشراق والمستشرقين، فيقول (صالح):" المستشرقون يتنازعون على اسم حصان امرئ القيس وناقته"[2] ، وفي تقليلهما من شأن الاستشراق يقول (أركون وصالح):" المستشرقون مهمّشون في بلدانهم ولا قيمة لهم بين العلماء"[3] ، كما يضعان من قيمة الفيلولوجيا فيقولان:" الفيلولوجيا: تعتني فقط بالنصوص الصريحة والشواهد الثابتة."[4] ، فهذا دليل على ما ذهبنا إليه من أنّ أكثر المتحمّسين للمناهج الغربية والتحرر الفكري في

(2) محمد مزوغي، في نقد الاستشراق، المحور أركون/ صالح، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، 2017، ص6.

(3) المرجع السابق، ص6.

(4) المرجع السابق نفسه، ص6.

المنارة للاستشارات

دراسة الموروث الإسلامي، لا يتورّعون في الدفاع عن أقدس مقدّساتهم حين تتعرّض للخطر من طرف العدو اللدود ألا وهو الاستشراق.

ولكن قبل أن نخوض في هذا الموضوع برمّته، وقبل أن نستشفّ السبب وراء دعوات التجديد التي عرفتها ساحة الفكر الإسلامي والتي جعلْنا الاستشراق أحد أسبابها، وهو كذلك حقا، يجب أن نمرّ ببيان المصطلحات التي دار حولها الموضوع، من تجديد، واستشراق ومستشرقين، لنصل بعدها إلى ساحة الفكر الإسلامي وحركيته، وتجاوباته مع التجديد.

أولا: تعريف الاستشراق:

يعتبر الاستشراق ظاهرة فكرية بامتياز، ذلك لأنه قام أول ما قام على أسس فكرية في ظاهرها وكذلك أهدافه كانت، هذا بغض النظر عن خلفيته التي انطلق منها وصولا إلى الأهداف المعلنة أو المضمرة الخفية، لأنه كما هو معلوم عند أهل الاختصاص فالاستشراق نوعان، ظاهر وباطن، ويمكن اعتبار هذا كأول تعريف للاستشراق يمكّننا من الاطلاع على ماهيته، إلا أنه لا يسعنا المقام هنا لذكر كل التعاريف التي مسّت الموضوع لكثرتها وتنوعها، وتشابهها في كثير من الأحيان، ولأنها لم تتوقف إلى يومنا هذا بسبب خصوصية الموضوع الذي لم ينطفئ نوره ولم يخفت بريقه، ومازال حاضرا في كتابات المفكّرين وممارَسًا في الحياة المعرفية بشكل واضح وجليّ.

الاستشراق لغة:

مشتقّ من كلمة شرق وهي جهة شروق الشمس[5] وشرق، وأخذ في ناحية الشرق، ويقال: "وشرقت الشمس شروقا إذا طلعت"[6]، و(ا، س، ت) في كلمة الاستشراق تفيد الطلب أي طلب دراسة ما في الشرق[7]، إلاّ أنه قد اختُلِف في تحديد المعنى المراد بالشرق إن كان الشرق الجغرافي أم الفكري، أمّا ما نميل إليه فهو الشرق الفكري، ذلك لأن عملية الاستشراق كانت منصبّة على كل ما له علاقة بالشرق، والعربي والإسلامي خاصة، ولأن فكرة الشرق الجغرافي فكرة ضعيفة مقابل هذه العملية الفكرية وسببها أنّ

([5]) فاروق عمر فوزي، الاستشراق والتاريخ الاسلامي، الأهلية للنشر والتوزيع ، الأردن، عمان، 1998، ط1، ص30/29.

([6]) الفيروز أبادي، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، القاهرة، مصر، ط1، د.ت، ص482.

([7]) فاروق عمر فوزي، الاستشراق والتاريخ الاسلامي، ص30.

المنارة للاستشارات

الشرق الجغرافي نسبيّ وليس نهائيا، لأن شرق مكان ما هو غرب آخر، ضف إلى ذلك أنه إذا أخذنا بفكرة الشرق الجغرافي فسرعان ما يتبين ضعفها أمام الجهة التي قامت بعملية الاستشراق، ببساطة لأننا نُعتَبَر جنوبا بالنسبة لأوروبا التي انطلقت منها عملية الاستشراق، ومن هنا يتبين لنا أن المراد بالشرق في هذا المحلّ الشرق الفكري لا الجغرافي.

الاستشراق اصطلاحا:

اختلف الباحثون في تحديد المراد من مصطلح الاستشراق فنجد مثلا تعريفا له: "هو علم يدرس لغات شعوب الشرق وتراثهم وحضاراتهم ومجتمعاتهم وماضيهم وحاضرهم."[8] ويظهر من خلال هذا التعريف أنه منسجم مع التعريف اللغوي، لأن كليهما يصبان في قالب واحد وهو الجانب الفكري لهذه العملية وهو ما رجّحناه في التعريف اللغوي، ويعرّفه كذلك الدكتور "محمود حمدي زقزوق" بقوله:" هو الدراسة الغربية المتعلّقة بالشرق الإسلامي ويطلق على كل غربي يشتغل بدراسة الشرق كلّه أقصاه ووسطه وأدناه في لغاته وآدابه وحضارته وأديانه."[9]، فهذا التعريف الذي جاء به الدكتور زقزوق يتماشى مع سابقه إذ أنه يدخل فيه كل الشرق باختلاف شعوبه ولغاته وعقائده وكلّ متعلّقاته، وهو بهذا يخرجه إذا من دائرة دراسة العالم العربي والإسلامي فقط إلى دراسة كل العالم الشرقي، ويرى "إدوارد سعيد" أن الاستشراق هو:" نمط من الإسقاط الغربي على الشرق وإرادة السيطرة عليه."[10]، ويعتبر هذا التعريف من أكثر التعريفات فضحا لهذا الفن الفكري، إذ يعتبر "إدوارد سعيد" أن الاستشراق ما هو إلا وجه خفي للاستعمار، ولما لا يكونان وجهين لعملة واحدة؟ إذ جعل كتابه بعنوان: (الاستشراق: المعرفة، السلطة، الإنشاء)، ونحن نرى أن هذا العنوان في حد ذاته من أوفى التعريفات للاستشراق، إذ بشرح بسيط له نجد أنه يريد معرفة العالم الشرقي ومن ثمّ التّسلّط عليه ثم إنشاء عالم افتراضي موازله لا يلامسه على الإطلاق.

([8]) انظر محمود حمدي زقزوق، الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، دار كتاب الأمة، قطر، ط2، 1983، ص18.

([9]) المرجع السابق، ص18.

([10]) إدوارد سعيد، الاستشراق، تر: كمال أبو ديب، مؤسسة الأبحاث العربية، القاهرة، ط1، 2005، ص12.

المنارة للاستشارات

وقد حمل لواء هذا الفن مجموعة كبيرة من المستشرقين والذين اختلفت التعريفات بهم كذلك، وهم هؤلاء الغربيون الذين انبروا لدراسات الشرق بما فيه والذين يقول فيهم الدكتور زقزوق:" هم جماعة من المؤرخين والكتّاب الأجانب الذين خصّصوا جزءا من حياتهم في دراسة وتتبّع المواضيع التراثية والتاريخية والدينية والاجتماعية للشرق"[11] ، إلّا أنّ هذا المجال عرف مدّا وجزرا في تحديد معالمه بصفة نهائية، إذ كان الاختلاف حتى فيمن يجب تسميته بالمستشرق من عدمه، فنجد مثلا من يقول أن المستشرق:" شخص غربي غير مسلم من أوروبا أو أمريكا يدرس العربية وبعض وجوه الثقافة الإسلامية."[12] ، ويذهب هذا المذهب كذلك المفكر "مالك بن نبي" في كتابه (إنتاج المستشرقين) بقوله:" إننا نعني بالمستشرقين الكتّاب الغربيين الذين يكتبون عن الفكر الإسلامي وعن الحضارة الإسلامية."[13] ، ذلك لأنه يرى أن صفة طلب الشيء يجب ألاّ تتوفر في طالبه، إذا على هذا المنوال لا يمكن وصف الشرقي بالمستشرق لأنه يطلب شيئا هو في الأساس ابن بيئته، إلاّ أننا نجد في مقابل هذا التصنيف تصنيفا آخر يدرج كل من درس الشرق ولو كان منه مستشرقا، لأن أصحاب هذا الطرح يعتبرون إخراج العرب الممارسين للاستشراق تضييقا في حق منتوجهم الفكري ومجهوداتهم المبذولة في هذا الفن، فنجد مثلا "علي بن إبراهيم النملة" يدرج هؤلاء ضمن دائرة الاستشراق حسبه إذا ما مارسوا دراساتهم في الإسلام من مطلق استشراقي مع حفاظهم على عقائدهم اليهودية أو النصرانية [14] ، أمّا إذا نظرنا في تعريفات الغربيين أنفسهم للمستشرق فنجد مثلا " ألبرت ديتريش" يعرفه:" بأنه ذلك الباحث الذي يحاول دراسة الشرق وتفهّمه ولن يتأتّى له الوصول إلى نتائج سليمة في هذا المضمار ما لم يتقن لغات الشرق."[15] ، وهذا ما تجسد حقيقة على أرض الواقع مع الرعيل الأول من المستشرقين الذين غاصوا

([11]) انظر محمود حمدي زقزوق، الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، ص18.

([12]) عمر فروخ، الاستشراق في نطاق العلم وفي نطاق السياسة، في الإسلام والمستشرقون، تأليف نخبة من العلماء المسلمين، جدة، عالم المعرفة، 1985، دط، ص125.

([13]) مالك بن نبي، إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي الحديث، دار الإرشاد للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، 1969، ص5.

([14]) انظر علي بن إبراهيم النملة، الاستشراق والدراسات الإسلامية، مكتبة التوبة، الرياض، ط1، 1998، ص124.

([15]) ينظر أنور محمود زناتي، زيارة جديدة للاستشراق، مكتبة الأنجلو مصرية، ط1، 2006، ص22.

المنارة للاستشارات

في أغوار لغات الشرق حتى أتقنوها وكتبوا بها، بل أكثر من ذلك حققوا عيون الكتب فيها، إلاّ أن مع كل هذا نجد الدكتور (محمود محمد شاكر) يعتبرهم أطفالا في اللغة العربية ولم يتجاوزوا مرحلة الشادي فيها، لأنهم نشأوا في بيئة غير بيئتها و تمرّس لسانهم على غيرها، ممّا ترك العجمة بادية في ألسنتهم، فيقول عن لغتهم:" دخل في لغة هو هجين فيها كل الهجنة..."[16] ويضيف فيقول:" أمّا اللغة فغير ممكن أن يكون فيها إلاّ طالبا شاديا."[17] ، فهذا رأيه في هؤلاء المستشرقين الذين صالوا وجالوا في فنون وعلوم العربية، وهم عنها غرباء كل الغربة.

ثانيا: البدايات والنشأة:

اختلفت الأقوال والآراء حول تاريخ نشأة الاستشراق، إذ لم تستقر على تاريخ واحد محدد غير الإقرار بالتاريخ الرسمي لنشأته والذي يرتبط بصدور قرار مجمع فيينا الكنسي عام 1312 بتأسيس عدد من كراسي الأستاذية في العربية، اليونانية، العبرية، السريانية، في جامعات باريس وأكسفورد، وبولونيا، وأفنيون، وسلامنكا[18] ، هذا فيما يخص الاستشراق الرسمي، أما فيما يخص الإرهاصات والبدايات الأولى فلا يعرف لها تاريخ محدد، وقد تضاربت الآراء حولها؛ فهناك من يردّها إلى القرون الميلادية الأولى[19] ، وهناك من يرى بأن الاستشراق بدأ " باحتكاك المسلمين بالرومان في غزوة مؤتة ومن ثم غزوة تبوك"[20] ، وهذا الرأي يعتبره صاحبه بداية الخصومة السياسية التي أدت إلى خصومة فكرية وعقدية، ويرجع سبب هذه الخصومة حسب رأينا إلى الجهل الذي كان يعيشه الغرب الوثني المتعدد الآلهة، لأنهم لو عرفوا ما في الإسلام من خير لأتوه طائعين، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على هشاشة المعتقد الذي كانوا يعتقدون، وهناك رأي آخر حول البدايات يرى بأن الاستشراق بدأ مع الحروب الصليبية حين بدأ الاحتكاك السياسي بين الإسلام والنصرانية الغربية في فلسطين، بسبب الهزائم التي ألحقت

([16]) محمود محمد شاكر، رسالة في الطريق إلى ثقافتنا، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر،ط2، 1427هـ/2006م، ص76.

([17]) المرجع السابق، ص76.

([18]) إدوارد سعيد، الاستشراق، ص80.

([19]) ينظر نجيب العقيقي، المستشرقون، ج1، ط4، دار المعارف، القاهرة، ص19.

([20]) قاسم السامرائي، الاستشراق بين الموضوعية والافتعالية، دار الرفاعي للنشر والطباعة والتوزيع، ط1، 1983، ص19.

المنارة للاستشارات

بأنصارها على يد المسلمين أيام صلاح الدين الأيوبي [21] مما ألزم عليهم الثأر لهزائمهم ببداية العملية الفكرية المتمثلة في الاستشراق، ويمكن أن يكون هذا الرأي صحيحا لأن سببه وجيه، فالغرب النصراني لم يتقبل فكرة ضياع القدس من بين يديه.

كما نجد من الآراء المتضاربة حول بداية هذا الفن الرأي الذي يقول بأن الاستشراق بدأ مع الرهبان الذين قصدوا الأندلس إبان مجدها طلبا للعلم، وكان من أشهر هؤلاء الراهب الفرنسي(جربرت) الذي انتخب بابا لكنيسة روما 999م [22] ، كما نجد كذلك من يرى أنّ الاستشراق بدأ في فترة الأندلس ولكن مع الحروب الدموية التي نشبت بين النصارى والمسلمين بعد استيلاء "ألفونسو السادس" على طليطلة سنة 448هـ/1056م[23]، إلاّ أنّ الأظهر من هذه الآراء ما كان مباشرا على شاكلة أول ترجمة لمعاني القرآن الكريم للغة اللاتينية عام 1143م[24]، ويمكن تاريخيا اعتبار سقوط القسطنطينية بيد المسلمين عام 1453 نقطة مفصلية في بداية العملية الاستشراقية بشكل مكثف، فعلى الرغم من أنها كانت تحوي الكنيسة الشرقية التي تختلف في جوهرها عن كنيسة روما الغربية، إلاّ أنّها تظلّ حاملة لراية النصرانية التي وجب حمايتها والذود عنها.

إلاّ أن ما يمكن ملاحظته من خلال كل هذا الحديث أن العملية الاستشراقية كانت في بداياتها عملية فردية قام بها أشخاص فرادى كل منهم حرّكته نزعة معينة، إلى أن تبنته الكنيسة ونظمت بموجبه مؤتمرا كبيرا في فيينا عام 1312 دعا إلى إنشاء كراسي أستاذية بمختلف الجامعات الأوروبية للتعرف أكثر على أسرار العالم الشرقي من خلال تعلّم لغاته وآدابه وفنونه وعقائده وكل شيء فيه، مما يسهّل أكثر عملية الغوص فيه والكتابة عنه وصولا إلى ما وصل إليه الاستشراق من نتائج كانت جدّ وخيمة على العالمين العربي والإسلامي.

وإنما أوردنا هذه النقطة بالتحديد (البدايات والنشأة) وقد كان في إمكاننا الاستغناء عنها في هذا الموضوع، للصّلة الوثيقة بينها وبين الفكر الإسلامي، إذ الملاحظ منها أن أوّل

([21]) ينظر المرجع السابق، ص20.

([22]) ينظر محمود حمدي زقزوق، الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، ص20.

([23]) ينظر قاسم السامرائي، الاستشراق بين الموضوعية والافتعالية، ص21.

([24]) ينظر العقيقي، المستشرقون، ص21.

المنارة للاستشارات

ما بدأ الاستشراق سواء كحركة فردية أو رسمية ناقش مواضيع متعلقة بالإسلام مباشرة، فكان هذا محرّكنا في تقديم نبذة عن بداياته في اتصالها المباشر بالعالم الإسلامي، ممّا سيكون له أثر بيّنٌ في ساحة الفكر الإسلامي، وهذا ما سنلاحظه ونتلمسه فيما يأتي من هذا الموضوع.

ثالثا: مفهوم التجديد في الفكر الإسلامي:

التجديد لغة:

التجديد في العربية هو عكس القديم والجدّة نقيض البلى، فيقال: شيء جديد، والجمع أجدّة وجدُد وجُدَد، والجديد هو المقطوع، كما يحتمل لفظ جديد أن يكون الشيء قديما فجدّدته[25] هذا هو التجديد في العربية، فهو كل ما كان عكس القديم البالي، مع احتمال أن يكون تجديدا لهذا البالي وتحسين وجهه، كقولنا مثلا جددت ثوبي إذا حسّنت مظهره.

أمّا عن اللغة الإنجليزية "فلفظة Modern، صفة تعني الجديد، أو العصري، أو المستحدث، وتستعمل هذه الصفة بالتحديد للدلالة على أمر لم يوجد في السالف، أو لا ينتمي إلى عصور قديمة."[26]، وبما أن هذا هو المعنى الذي تحمله هذه اللفظة وهو معنى مشترك مع مفهوم اللفظة العربية، فإن التجديد modernization لابد أن يكون منفصلا عن العصور السابقة له زمنيا [27]، فما يلاحظ من المعنى للفظة الجديد والتجديد في اللغتين - العربية والإنجليزية- أنهما تتفقان في أنّه كل ما كان عكس القديم أو تجديدا له بإلباسه حلّة مغايرة لما كان عليها.

التجديد اصطلاحا:

يقصد بالتجديد في الفكر الإسلامي تعايشه مع العصور والأزمنة المختلفة، ويكون هذا مع وضع قاعدة فهم السلف الصالح للإسلام قاعدة انطلاق لهذا التجديد، ونضيف على هذا بقولنا أنّ التجديد يقصد به "تنقية التراث من كلّ ما علق به من خرافات وأساطير وأمور لا يقبلها العقل، والنظر في المستجدات وإعمال الفكر فيها، وعدم

([25]) ينظر ابن منظور، محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط1، ج3، د.ت، ص112/108.

([26]) أيمن بن أحمد بن حسين العقبي، الاستشراق وتجديد الدين، مجلة جامعة طيبة: للآداب والعلوم الانسانية، السنة الثانية، العدد3، 1435هـ، ص441.

([27]) ينظر خزندار عابد، حديث الحداثة، المكتب المصري الحديث، القاهرة، 1990، ص18/17.

المنارة للاستشارات

الانغلاق أمامها، ولكن شريطة تبيان حكم الله فيها"[28]، وهذا القول لا ينفي على الإطلاق ما نؤمن به من غيبيات وأمور حدثت للنبي ﷺ هي من أمر الله تعالى، وبهذه التنقية والتصفية يكون الفكر مسايرا للتغيّرات الطارئة على المجتمعات الإسلامية ومواكبتها، وبهذا يجد الفكر الإسلامي لنفسه موضع قدم في كل هذه التقلّبات والتحولات التي تشهدها المجتمعات، من تحولات سياسية واجتماعية وثقافية وبيئية وغيرها، مع الحفاظ على ثوابته وأصالته في القضايا الكبرى، لأننا حين نقول التجديد لا نقصد بذلك محو الماضي أو تجاوزه أو عدم الاعتراف به، بل مواصلة ما جاء به الأسلاف مع مسايرته للواقع، وكأننا هنا أمام ازدواجية الأصالة والمعاصرة.

وما يجب أن نقف عليه هنا أنّ فكرة التجديد في الفكر الإسلامي مسألة حيوية وضرورية لمواصلة مسيرة الأولين في تبليغ رسالة الإسلام للأجيال اللاحقة، ولكن بحديثنا هذا لا نقصد أبدا تجديد الدّين الذي مفهومه الخلق والإبداع كما ورد في قواميس اللغة العربية، ذلك لأنه ثابت أمّا الفكر فمتغيّر، يتسبب في تغيره الأوضاع التي يعيشها في العصور والأماكن المختلفة، والتجديد يتطلب شروطا من أهمها الفهم السليم والصحيح للأصول الفقهية، والسنن النبوية، وحسن القياس مع الأخذ بعين الاعتبار خصوصيات العصور وتنوع الشعوب الإسلامية، وتمايز البيئات.

وكما ذكرنا في مقدمة البحث فإن حديث التجديد الذي رواه أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قد اتُّخِذ منطلقا لعملية التجديد في التاريخ الإسلامي، كل على حسَبه ونظرته، فقد كان هذا الحديث إيذانا لهؤلاء أن يمارسوه على العلوم والمعارف الإسلامية، التي رأوا بأنه من الضروري أن يمسها التجديد والتنقيح حسب فهومهم وحسب رؤيتهم، فكان التجديد مختلفا بين فريق وآخر باختلاف الرؤى والمناهل المعرفية، إلا أنّ هذا الفهم للتجديد ليس حاصلا بشكله الموحد عند جميع من عالجوه، فهناك فهم إسلامي له وهناك فهم حداثي وفهم غربي أجنبي، فنجد مثلا من بين تلك الفهوم له أنه:" تجديد المعاني والمفاهيم الدينية وإعادة تنظيم السلطة الروحية، واستيعاب التطور العميق الذي حصل داخل الوعي الديني، وتوفير الأطر الفكرية

([28]) ينظر سفر محمد حسن، التجديد في علم السياسة الشرعية وفقه العلاقات الدولية الإسلامية، نقلا عن أيمن بن أحمد بن حسين العقبي، الاستشراق وتجديد الدين، ص242.

المنارة للاستشارات

والنظرية والاجتماعية التي تساعده على معرفة نفسه وتحقيق ذاته بشكل طبيعي."[29] نلاحظ في هذا التعريف أنه لا يقيم للثوابت و الإيمانيات وزنا، وهو يعطيه مفهوم الثورة على كل قديم والخلق الجديد، وهو تعريف لا يمكن أن يتماشى مع طبيعة الإسلام، لأنه كما ذكرنا سابقا الدين ثابت والفكر متغير، وعلى هذا الأخير أن يلتزم بالقوانين الكبرى للدين، فهذا نموذج عن فهم الحداثيين المتأثرين بالمناهج الغربية لمفهوم التجديد في الدين وفي الفكر الإسلاميين. كما نشأ (فكر إسلامي مغرّب) وهو "ذلك الفكر في المجتمع الإسلامي الذي يسير في اتجاه الفكر الغربي، أو بمعنى أدق ذلك الفكر الذي يسير إما في اتجاه الاستشراق وتوجيه الدراسات الإسلامية في الجامعات الغربية، أو في الاتجاه الطبيعي العلمي هناك."[30] وقد حدث لهذا النوع من الفكر المغرّب أن وجد له أنصارا في الساحة العربية الإسلامية، وحمل لواءه كثير من المفكرين، فخرج علينا (قاسم أمين) بكتاب (تحرير المرأة) وهو نابع عن نظرة تغريبية صرفة، و(سلامة موسى) رأس الاشتراكية في مصر، والذي "دعا إلى العلمانية الراديكالية ورأى أنه من الضروري التّحرّر من كلّ قيود التراث العربي والإسلامي، بل أكثر من هذا فقد صرح بضرورة الاتجاه إلى الحضارة الغربية والأخذ بها في كل جوانبها، ورأى أن الوضع الطبيعي لمصر هو الحضارة الغربية، بل هي رابطتها الحقيقية لا الرابطة الشرقية التي يراها سخافة تاريخية."[31] وغيرهما من المفكرين الذين ساروا في هذا النهج يريدون تغريب العالم الإسلامي عن طريق تغريب فكره، إلا أنّ مثل هذه الدعوات تعتبر نشازا، ولا يطول بها الزمن وسرعان ما تضمحل أمام ثابت الدين وتمسك المجتمعات الإسلامية به.

أما التجديد modernization عند الغربيين وطائفة المستشرقين بالتحديد فهو على حسب رؤيتهم المختلفة للدين فيقول المستشرق (جب) عنه :" تيار يقوم على الاحتفاظ بالعقيدة الإسلامية، ولكنه متأثر في قوة بالأفكار الغربية، والمثل التقدمي لهذا التجديد يميل إلى العلمانية التي تهدف إلى فصل الدين عن الدولة، والاستعاضة بالنظام الغربي

([29]) برهان غليون، نقد السياسة الدولة والدين، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط3، 2004، 554.

([30]) محمد البهي، الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي، مكتبة وهبة، ط4، القاهرة، مصر، ص176

([31]) أحمد محمد جاد عبد الرزاق، فلسفة المشروع الحضاري بين الإحياء الإسلامي والتحديث الغربي، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، هيرندن، فيرجينيا، و.م.أ، ط1، ج2،1995، ص587.

المنارة للاستشارات

للقانون عن الشريعة الإسلامية."[32] فهذا هو التجديد عند (جب) وغيره من المستشرقين، والذين حصل الاتفاق بينهم وبين طائفة الحداثيين من الإسلاميين أو المنتمين للمجتمعات الإسلامية ولكنهم تغريبيون كما بيّنّاهم سابقا، حول أن التجديد يجب أن يكون بهذا الشكل، وبهذا اتجهت تركيا الحديثة مثلا بعد إسقاط الخلافة إلى علمنة الدولة وهو تماشٍ مع تعريف (جب) للتجديد، ومع تلك الدعوات التغريبية التي لقيت صدى مسموعا عند مؤسسي تركيا الحديثة وعلى رأسهم (مصطفى كمال أتاتورك).

هذا بشكل عام مفهوم التجديد بين المنظور الإسلامي والمنظور الغربي والتغريبي، وما هذه الأمثلة التي أوردناها هنا إلا نماذج عن اتجاهات اتُّخذت وتبلورت في تلك الأشكال، حتى يمكننا أن نذهب بعيدا في هذا ونعتبرها مذاهب فكرية قامت على أساس فهم التّجديد في الفكر الإسلامي.

رابعا: مسببات التجديد في الفكر الإسلامي:

ممّا لا شك فيه أن لكل حركة إصلاحية أو تجديدية أسبابها ودوافعها، ومنطلقات تنطلق منها، وكما ذكرنا آنفا فإن الفكر الإسلامي أحد تلك المجالات التي مسّها التجديد ودعوات الإصلاح، والمطالبة بعصرنته ومسايرته للواقع حسب جدّته وتغيّراته، وكما هو معلوم فإن حركة التجديد والإصلاح لا تولد من العدم، ولا ينطلق إليها الداعون لها من غير أسباب تدفعهم لذلك دفعا، وقد اختلفت أسباب ودواعي التجديد في هذا الفكر، فمنها ما كان لأسباب داخلية فرضتها الأوضاع المجتمعية في بلاد الإسلام، وذلك حرصا على الحفاظ على الإسلام نقيا طارها كما أنزله الله تعالى على نبيه ﷺ ، وإزالة ما علق به من بدع وشركيات وخرافات وأباطيل ما أنزل الله بها من سلطان، وتيسيرا لحياة الناس في تأدية فرائضه، ومنها ما كان لأسباب خارجية طرأت على الساحة الإسلامية مما استدعى من أهله أن يهبّوا للدفاع عنه، وردّ الشبهات التي لحقت به، ومن بين تلك الأسباب: الاستشراق والذي أدّى دورا مهما في حركة التجديد هذه، والغزو الفكري الغربي الذي طالما أرق الأمة الإسلامية، وحركات التنصير التي شهدتها ولا زالت تشهدها بلادنا الإسلامية، والاستعمار الذي جثم على صدر الأمة منذ سقوط الدولة العثمانية،

([32]) هاملتون جب، المذهب المحمدي، ص135، نقلا عن محمد البهي، الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي، ص176.

المنارة للاستشارات

وقبله في عدد من الأمصار الإسلامية كالجزائر مثلا التي عرفت الاحتلال الفرنسي قبل سقوط الخلافة العثمانية بحوالي قرن من الزمن، دعوات حوار الأديان والحضارات، التغيرات السياسية المختلفة في العالم، ومثالها ما يحدث في أيّامنا من تغيرات على مستوى الفكر الإسلامي في المملكة العربية السعودية بسبب تغيّر بوصلتها السياسية، أو ما تشهده ساحة الفكر الإسلامي في مصر على إثر دعوة رئيسها الحالي إلى تجديد الخطاب الديني وفق ما يساير توجه النظام الحاكم هناك، وغيرها من الأمثلة والتي ضربنا مثلها فيما شهدته تركيا الحديثة التي اختارت النهج العلماني والتوجه الغربي نهجا جديدا في بناء الدولة الناتجة عن سقوط الخلافة العثمانية.

الاستشراق أهم مسببات التجديد:

منذ أن نشأ هذا الفن وعلاقته بالعالم الإسلامي من أكبر اهتماماته، إذ اعتبر بأن من مهامه المقدسة أن يتوجه إلى العالم الإسلامي وإعمال الفوضى فيه بإثارة الشبهات والتلفيقات في مقدساته، وتأويل نصوصه الدينية تأويلات يشوبها الكثير من التدليس والكذب والافتراء، وذلك بتطبيق مناهج العلوم الإنسانية الحديثة على ثوابت الدين ومقدساته، وعرض الموروث الإسلامي على هذه المناهج التي لن تقيم وزنا لقداسة هذا الموروث، خاصة ما ارتبط منه بالنصوص المقدسة كالقرآن والسّنّة، وما ترتب عنهما من كتابات في مجالات التفسير وكتب الحديث طعنا في أصحابها العدول، وتشويها للظروف المحيطة بها.

وقد اتخذ الاستشراق والمستشرقون مواقف من الإسلام كانت في كثير من الأحيان متشابهة، وكأنه حدث اتفاق ضمني على نوعية التدخّلات والممارسات على الفكر الإسلامي، وذلك راجع إلى أنّ هؤلاء المستشرقين ينهل بعضهم من فكر بعض، وبذلك حصل الاتفاق المشترك في أعمالهم، وإن اختلفت أشكاله، إلاّ أن مضامينه كانت متشابهة، ولقد أنتجت هذه المواقف والرؤية الاستشراقية للإسلام وفكره نتائج ظهرت على الساحة الإسلامية، كانت أولاها حركة افتتان بهذا المنتوج الاستشراقي واتباعه والدعوة لتقليده، فكانت حركة التحديث والتغريب وفق النموذج الغربي التي رأيناها آنفا، والتي حمل لواءها كثير من المفكرين العرب والمحسوبين على البيئة الإسلامية في العصر الحديث، وثانيها كانت ردة فعل المسلمين من مفكرين وإصلاحيين ومدافعين عن عرين الإسلام وحدوده ضدّ هذا المنتوج الفكري الاستشراقي الذي غلب عليه الكذب والتزوير.

المنارة للاستشارات

خامسا:أهم مواقف المستشرقين حول الإسلام والفكر الإسلامي:

لقد تنوعت المواقف الاستشراقية في هذا المجال، وكثرت حتى ليصعب على الباحث فيها أن يحصرها جميعا، "وقد كان الكثير من هؤلاء المستشرقين الغربيين يدسّون في كتاباتهم مقدارا معينا من السّمّ، ويحترسون في ذلك فلا يزيد على النسبة المعينة لديهم كي يكتسب درجة كبيرة من الثقة، فلا يستوحش القارئ ولا يثير ذلك فيه الحذر ولا يشك بنزاهة الكتاب."[33]، وهذا الرأي من أهم الأسباب التي نراها اتُّخذت كدافع قوي للتجديد في الفكر الإسلامي وتنقيته من تلك الأباطيل، وعلى هذا " فإن كتابات هؤلاء المستشرقين أشد خطرا على القارئ المسلم لاسيما جانب المستشرقين والكتّاب الذين يكاشفون العداء للمسلمين ويشحنون كتبهم جميعا بالكذب والافتراء"[34]، ونحن في هذا المقام سنعرض بعض المواقف وليس كلها لأن المجال ضيق ولا يسمح لنا بتعديدها جميعا.

أ/الموقف من القرآن الكريم:

يعتبر القرآن الكريم المصدر الأول للتشريع في الإسلام، وهو كلام الله الذي أوحى به إلى نبيه محمد ﷺ ، ويوجد به كل عقائد الدين الإسلامي وشريعته، وتنبثق منه أخلاق الإسلام وآدابه، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه [35]، ومن أجل ذلك فقد تعامل المستشرقون معه على غير ما يتعامل معه المسلمون، ذلك لأن هؤلاء المستشرقين رأوا بأنه نص كباقي النصوص الإنسانية، فنزعوا عنه صفة القداسة، وعرضوه على مناهج العلوم الإنسانية الحديثة، " فعندما تعاطى الاستشراق مع القرآن جاء ذلك ضمن سياق تاريخي عام في تعاطيه مع النص المقدس، وهي مخاضات طويلة وربما أخذت في أحيان كثيرة مظهر المعارك الفكرية ما بين المؤسسة الدينية والمتنورين في قراءة نص الكتاب المقدس، بدأت مع باروخ إسبينوزا (1632-1677)، مرورا بشلاير ماخر (1678-1834) وصولا حتى غادامر (2002)، وفي هذا السياق يحاول أن يتعامل مع الكتاب المقدس كنص بشري أرضي مجرد من كل هالات القداسة، وقد تأسست في هذا

([33]) ينظر إياد علي الهاشمي، البعد الديني في الاستشراق الغربي، دار الفكر، عمّان، الأردن، ط1، 2016، ص51.

([34]) المرجع السابق، ص51

([35]) ينظر محمود حمدي زقزوق، الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، ص82.

المنارة للاستشارات

الباب مناهج نقدية عالجت بآليات متعددة النص الديني وتفكيكيه والكشف عن مستوراته وما يستنبطه."[36] ، كما بذل الاستشراق جهده في "محاولة زعزعة الاعتقاد في صحة القرآن وفي مصدره"[37] فلم يخرج عن نفس ادعاءات المشركين من قبل، حين نزل الوحي على محمد ﷺ حين قالوا:" " إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ."[38] ، وهذا الادعاء مشترك بين كفار قريش والمستشرقين، كما اتفقوا كذلك على أن محمدا ﷺ " يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ."[39] ، واختلفوا في أسماء معلميه، فمنهم من قال:" أنه قد جاء به من بلعام، ومنهم من قال اسم معلمه أبو ميسرة، وكان هذا الأخير يتكلم الرومية، فيما قال البعض الآخر أنه عدّاس غلام عتيبة بن ربيعة، ومنهم من قال أيضا أنّ اسمه عابس غلام حويطب عبد العزى ويسار أبو فكيهة مولى ابن الحضرمي وكانا قد أسلما."[40] هذا إضافة إلى التّهم التي ملأت كتبهم من أمثال أنه كاهن وساحر وغيرها من الافتراءات.

وتعتبر حركة ترجمة معاني القرآن الكريم من أول الاحتكاكات الغربية به، وكان ذلك في محاولة من المستشرقين لنقل الصراع من الجانب العسكري متمثلا في الحروب الصليبية وانتكاساتها المتعددة أمام الجيوش الإسلامية إلى الجانب الفكري متمثلا في عملية تشويه صورة الإسلام بالطعن في كتابه الكريم، وقد كان لفتح القسطنطينية أثر بليغ في هذه الدراسات الاستشراقية لأنه " هو الذي أدى بهم إلى يقظة شاملة قامت على الإصرار، وعلى المجاهدة المثابِرَة على تحصيل العلم وعلى إصلاح خلل الحياة المسيحية"[41] فكان هذا هو الانطلاقة الفعلية في سبيل محاربة الإسلام المتغلغل إلى قلب أوروبا بالفكر والعقل والكتابات، فكانت الترجمات لمعاني القرآن الكريم نموذجا لذلك إلى يومنا هذا، ومن خلالها تم التحريف والتزييف، فيقول (جورج سيل- G.Sale)

([36]) أجنتس جولد تسيهر، المذاهب الإسلامية في تفسير القرآن، تر: د.علي حسن عبد القادر، المركز الأكاديمي للأبحاث، ط2، 2016، من مقدمة المركز، ص5.

([37]) المرجع السابق، ص82.

([38]) الفرقان: 4.

([39]) النحل: من الآية 103.

([40]) حسين علي الحاج حسن، الإسلام والاستشراق بين البنية الاجتماعية والاجتهادات الشرعية، منشورات زين الحقوقية، بيروت، لبنان، ط1، 2017، ص47.

([41]) محمود محمد شاكر، رسالة في الطريق إلى ثقافتنا، ص45.

المنارة للاستشارات

في مقدمة ترجمته معاني القرآن الصادرة عام 1736:" أمّا أنّ محمدا كان في الحقيقة مؤلف القرآن والمخترع الرئيسي له، فأمر لا يقبل الجدل، وإن كان من المرجح – مع ذلك- أن المعاونة التي تحصّل عليها من غيره في خطته هذه لم تكن معاونة يسيرة. وهذا واضح في أن مواطنيه لم يتركوا الاعتراض عليه بذلك."[42] فقد اعتبرت هذه المقدمة لصاحبها سيل مرجعا لعدد كبير من المستشرقين في احتكاكهم بالقرآن الكريم، وأثبتت وجودها في الساحة الاستشراقية ضربا من الزمن، فأصبحت فكرة تأليف محمد ﷺ للقرآن فكرة مركزية في كتاباتهم، إذ هي كما قال سيل لا تقبل الجدل، فنقل هذه المقدمة حرفيا المستشرق (كاسميرسكي) وجعلها مقدمة لترجمته عام 1841[43]، فالملاحظ من هذا أن الترجمة لم تعتن بالمنهج العلمي السليم، ولم تتحرّ الدقة، بل دفعتها الرغبة في الانتقاص من القرآن وزرع الشك في أهله، كما حدث مثلا " مع المستشرق (روبرت الكيتوني- Robert Of Ketouni) الذي أمره (بطرس المبجل- Peter The Venerable) في عام 1143 بترجمة معاني القرآن الكريم للغة اللاتينية، إلاّ أنّ هدف هذه الترجمة لم يكن بدافع الاطلاع على القرآن بقدر ما كانت بهدف التنصير لما جاء فيها من تحريف وإضافات وأخطاء مقصودة وهجوم على الإسلام والقرآن"[44] إذًا إن مثل هذه الترجمة وغيرها لم تكن أبدا بهدف التعرّف على الإسلام بل كان هدفها الحرب عليه وتشويه صورته في الغرب ولدى أهله، ويعترف بهذا الهدف المستشرق الفرنسي (بلاشير- R.L.Blacher 1900-1973) الذي يعتبر ترجمة معاني القرآن للغات الأوروبية بهدف إحداث حالة من الإرباك واللبس مما يؤدي إلى خلق نوع من الشك وعدم اليقين في القرآن قد يدفع المسلم إلى الابتعاد عنه [45]، إلاّ أنّ الملاحظ من هذا كله أنه لم يأت بالنتيجة المرجوة من وراء هذه الترجمات، بل بقي التمسك بالقرآن لدى المسلمين كما هو.

كما لم تسلم التفاسير من اتهاماتهم وتلفيقاتهم فاتُّهم الطبري بتوظيف الإسرائيليات في تفسيره فيقول جولد تسيهر:" وهنا – أيضا- يأتي بأخبار مأخوذة من القصص

([42]) نقلا عن محمود حمدي زقزوق، الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، ص83.

([43]) ينظر المرجع السابق، ص83.

([44]) ينظر إياد علي الهاشمي، البعد الديني في الاستشراق الغربي، ص56.

([45]) ينظر إياد علي الهاشمي، البعد الديني في الاستشراق الغربي، ص57.

المنارة للاستشارات

الإسرائيلية من مراجع يهودية الأصل (مثل كعب الأحبار، ووهب بن منبه)"[46]، ويزيد على الإسرائيليات القصص النصرانية فيقول:" وكذلك يروي عن وهب بن منبه قصصا نصرانية"[47]، وهنا نلاحظ أن الطعن حاصل في الطبري صاحب التفسير ومن خلاله في الصحابيين الراويين كعب الأحبار ووهب بن منبه، وهو يريد أنّ المسلمين الذين كانت أصولهم يهودية ونصرانية، لم يستطيعوا التخلي عن معتقداتهم السابقة، وطعّموا بها الإسلام ومعتقداته، وبهذا كله يصل إلى أنّ أصل الكثير من المعتقدات الإسلامية لا جدّة فيها، بل هي آتية من الديانتين المذكورتين سابقا، وبهذا يكون الإسلام تكرارا فقط لما سبقه.

هذه فقط نماذج من تعاملات المستشرقين مع القرآن الكريم، وغيره كثير لا يمكن حصره في هذا المقام، وهي صورة حقيقية عن طبيعة العلاقة بين الاستشراق والإسلام، فلا يغترّ الباحث بالمدح المكذوب الذي يجده في أعمالهم، لأنه سيجد بعده سما وتلفيقا يحيد به عن جادة الحق، فجولد تسيهر مثلا يمتدح الطبري وتفسيره كثيرا ويثني عليه ثناء حتى ليخيّل للباحث أنّه قول مسلم، ثم سرعان ما يطعن فيه من غير أن تشعر حين يلفق مثل هذه التهم التي رأيناها.

ب/<u>الموقف من السيرة</u>:

شغلت حياة رسول الله ﷺ عددا لا يحصى من دراسات المستشرقين واستولت على حيز مهم في كتاباتهم وأبحاثهم حول التاريخ الإسلامي، لما تشكله هذه السيرة من أهمية في الإسلام ولدى المسلمين، بحكم أن النبي ﷺ هو من تنزّل عليه الوحي وهو القدوة الأولى للمسلمين في تأدية الإسلام، ضف إلى ذلك أن السنة النبوية هي المصدر الثاني للتشريع الإسلامي بإجماع المسلمين، وعلى إثر هذا لا يكاد الباحث في الدراسات الاستشراقية حول الإسلام يجد بحثا بغير التطرق إلى سيرة النبيﷺ، إلاّ أن الملاحظ في كتابات هؤلاء المستشرقين حول السيرة النبوية منذ بداياتها لم تكن سليمة وصادقة في عمومها، وهذا ليس مردّه جهل هؤلاء بالسيرة ولا بالتاريخ الإسلامي بل يُرد إلى النزعة الحاقدة على الإسلام، " ولقد بدأت الكتابات المبكرة عن رسول الله ﷺ متأثرة بروح العداء للإسلام ولنبي الإسلام ﷺ من قبل اليهود والنصارى؛ وذلك لأن جل من كتب عن الإسلام في تلك

([46]) جولد تسيهر، المذاهب الإسلامية في تفسير القرآن، ص95.

([47]) المرجع نفسه، ص96.

المنارة للاستشارات

الحقبة كان من علماء الديانتين، لذا فقد جاءت كتاباتهم أبعد ما تكون عن الإنصاف ونزاهة البحث العلمي."[48]

وعلى هذا الأساس إذا اطلعنا على مناهج هؤلاء المستشرقين في تناولهم للسيرة النبوية سنجد فيها ما يخرج هذه السيرة العطرة من مكانتها المقدسة لدى المسلمين، كما سيتناول محمدا ﷺ على أساس أنه رجل عادي أو أكثر من ذلك، أي على أساس أنه رجل ادّعى النبوة وليس له فيها شيء، وما تلاها من ادعاءات وافتراءات وأكاذيب الهدف منها تشويه صورته ومن خلالها تشويه صورة الإسلام ومحاولة ضربه في الصميم، وقد اتّبع المستشرقون في هذا الكثير من مناهج العلوم الإنسانية الحديثة والتي تقوم في أساسها على منهج التشكيك والتكذيب، أما عن أهم النقاط التي يتوجب على أي باحث أن يلتزم بها؛ احترام النبي ﷺ حتى ولو لم يؤمن به، وأن يبتعد عن الأحكام المسبقة والتي في أساسها بنيت إثر توجيهات كنسية سابقة، كما يجب أن يكون الباحث عالما وعارفا وملمًّا بالأدوات الإجرائية اللازمة في عملية البحث التاريخي، والتي تمكّن صاحبها من إنتاج عمل تاريخي يتميز بالدقة والمصداقية إلى حد كبير، أما الملاحظ من أعمال المستشرقين أنهم رغم توفرهم على الأدوات اللازمة للبحث التاريخي إلا أنهم وقعوا في فخ عدم احترام النبي ﷺ، كما وجّهت مواقفهم تلك الأحكام المسبقة التي بنوها في أذهانهم عن الإسلام ونبيه ﷺ، مما جعل أعمالهم ناقصة كثيرا من حيث المنهجية السليمة والمصداقية وبالتالي من حيث النتائج المتوصل إليها، ومن جملة تلك المواقف ما كان من المستشرق (وات- Watt) الذي اعتبر حديث النبي ﷺ في غار حراء ليس إلا فرارا من حر الصّيف، وأنّ محمدا ﷺ كان يعرف القراءة والكتابة؛ لأنه عمل بالتجارة، والتاجر لابد أن يكون مدققا لحساباته ومراجعا لها، وذلك لا يكون إلا بمعرفتهما -يقصد الكتابة والقراءة-[49] ، كما اعتبر "فولتير" النبي ﷺ رجلا سياسيا، الغاية عنده تبرر الوسيلة [50] ، ويبيّن لنا هذا الطرح مدى بساطة التحليل الاستشراقي على الرغم من أنه يدعي الغوص في المواضيع، فكيف

([48]) سلطان بن عمر بن عبد العزيز الحصين، الاستشراق الفرنسي والسيرة النبوية، المدينة المنورة، ط1، 1436هـ، ص31.

([49]) ينظر عبد المنعم فؤاد، من افتراءات المستشرقين على الأصول العقدية في الإسلام، مكتبة العبيكان، ط1، 1422هـ، ص206.

([50]) ينظر فاروق عمر فوزي، الاستشراق والتاريخ الاسلامي، الأهلية للنشر والتوزيع ، الأردن، عمان، 1998، ط1، ص54/53.

المنارة للاستشارات

يعتبر النبي ﷺ رجل سياسة بهذا المصطلح الذي لم تعرفه البشرية إلا في عصور متأخرة عن زمن النبي ﷺ ، وهذا مثاله حين نجد كتابات المستشرقين بلغاتهم المختلفة على لسان النبي ﷺ مثلما هو المسيح عليه السلام عندهم، فتجد مرّة محمدا ﷺ يتحدث بلهجة ألمانية إذا كان المؤلف ألمانيا، وبلهجة إيطالية إذا كان المؤلف إيطاليا، وهكذا تتغير جنسية محمد ﷺ بتغيّر جنسية الكاتب [51] ، وفي هذا الطرح نجد المستشرق (رينان) يعترف بوجود محمد ﷺ ولكنه يراه زعيما مثل باقي زعماء الإصلاح في القرن الثالث عشر[52] ، أما عن علاقة النبي ﷺ بالقرآن فقد تخيله المستشرقون مثل واضعي الديانات السابقين، فقد اعتبر عليه الصلاة والسلام رجلا دفعته طموحاته ووساوسه في سن الكهولة إلى تأسيس دين؛ ليعدّ في زمرة القديسين، فأنشأ مجموعة عقائد خرافية وآداب سطحية ونشرها بين قومه، فاتّبعه خلق منهم [53] ، فهذه هي الصورة النمطية المتواترة عند المستشرقين في توظيفهم لمخيلاتهم المعاصرة وتطبيقها على سيرة النبي ﷺ، كما نحوا في تعاملهم مع السيرة اتخاذ منهج العكس وتوظيفه على أحداث السيرة، وهو المنهج الذي يقوم على عكس الأحداث إما تكذيبا أو تصديقا، ومن أمثلة ذلك ما أورده المستشرق (ول ديورانت) في (كتابه قصة الحضارة):" وقد أعانه نشاطه وصحته على أداء واجبات الحبّ والحرب، لكنه أخذ يضعف حين بلغ التاسعة والخمسين من عمره، وظنّ أنّ يهود خيبر دسوا له السّمّ في اللحم قبل عام من ذلك الوقت."[54] ، فنحن نرى كيف يشكك هذا المستشرق في صحة الحادثة الثابتة في كتب السير، وكيف يتلاعب بالمصطلحات، فهو يوظف لفظة "ظن"، أي أنها ليست حقيقية بل من مخيال محمد ﷺ، بسبب كبر سنّه وضعف قوته وذاكرته فأصبح يهذي بحسب هذا المستشرق، ولكن حاشاه ذلك إن هي إلا تلفيقات المستشرقين وأكاذيبهم ليضربوا الإسلام في مقتل حين يقومون بالتشكيك في أحداث سيرة النبي ﷺ، وهذا دأب المستشرقين في إنكارهم لكثير

([51]) ينظر سلطان بن عمر بن عبد العزيز الحصين، الاستشراق الفرنسي والسيرة النبوية، ص45.

([52]) ينظر لوثروب ستوارد، حاضر العالم الإسلامي 1/ 44 عن طريق خالد إبراهيم المحجوبي، الاستشراق والإسلام (مطارحات نقدية للطروح الاستشراقية)، أكاديمية الفكر الجماهيري، بنغازي، ليبيا، 2010، ص78.

([53]) ينظر أنور الجندي، الإسلام والثقافة العربية في مواجهة الاستعمار، مطبعة الرسالة، مصر، ص139.

([54]) ول ديورانت: قصة الحضارة، تر: محمد بدران، دار الجيل، د.ت، د.ط، م4، ج2، ص46.

المنارة للاستشارات

من أحداث السيرة، كما أنكروا المعجزات التي حدثت مع النبي ﷺ، فخاضوا في كثير من الأحداث بخيانة علمية، وقد فعلوا هذا مع قصة (الغرانيق)[55] التي صحّحوها وقالوا بأنها وقعت حقا للنبي ﷺ، مع أن كثيرا من علماء الإسلام ضعّفوها، بل منهم من وضعها بحكم أنه لا يليق بمقام النبي ﷺ المعصوم أن يجري الشيطان على لسانه الكفر ومع قول الله تعالى، وهذا أفضل نموذج على منهج عكس الأحداث لدى المستشرقين في تعاملهم مع السيرة النبوية، وهذا دليل بيّن كذلك على أنهم يرون السيرة النبوية بمنظار حديث معاصر، يختلف فيه الوجهان اختلافا بيّنا لا التقاء فيه.

كما تعامل المستشرقون مع السيرة من منطلق علماني، يتنافى مع الدين بشكل كبير وواضح، إذ يقوم على رفضه أو عدم التعايش معه، فهو لا يعترف بالخوارق والمعجزات الدينية، و يرى أنه يجب إخضاع كل ظاهرة تاريخية أو بشرية، لمقولات التحليل العقلي الخالص حتى لو كانت غيبية تندّ عن التعليل والتحليل [56]، ومن أمثلة ذلك ما كان من المستشرق المذكور سابقا (وات)، والذي رفض مجموعة من الأحداث التي عاشها النبي ﷺ كحادثة شق الصدر، ورؤية جبريل عليه السلام، كما رأى أن النبوة في أساسها تخيلات محمدية بعيدة كل البعد عن الرسالة الإلهية [57] ، ويقول:" إنّ هناك العديد من القصص ذات الطابع الديني يكاد يكون من المتيقّن بأنها ليست حقيقة من وجهة نظر المؤرخ العلماني الواقعية."[58] ، هذه هي إذن النظرة العلمانية للدين وللأحداث الحاصلة في القصص الدينية، ومثال هذا كذلك عند (بروكلمان) الذي رفض البعد الديني لدعوة محمد النبي، لأنه يرى أن نفس محمد ﷺ نضجت فيها فكرة أنه مدعو لأداء رسالة، ثم أعلن بعد ذلك ما ظنّه وحيا، وهذا لم يثر أتباعه الذين ألفوا أن يكون في كل قبيلة كاهن، يردّ الأحكام والمشكلات الغامضة إلى صاحب له غيبي، ثم يذيعها في

([55])ينظر ويليام مونتجمري وات، محمد في مكة، تر: عبد الرحمن الشيخ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2002م، ص214-226.

([56]) ينظر عماد الدين خليل، المستشرقون والسيرة النبوية، دار الثقافة، الدوحة، قطر، 1410هـ ، ص174.

([57]) ينظر وات، محمد في مكة، ص107، وعبد الله محمد الأمين النعيم، الاستشراق في السيرة النبوية، المعهد العالي للفكر الإسلامي، ط1، 1997، ص39.

([58]) وات، محمد في مكة، ص 107.

المنارة للاستشارات

الناس على شكل نثري مسجوع [59]، هذا هو التصوّر العام للنبيﷺ لدى هؤلاء المستشرقين، إذ أنه جمع كل شيء إلاّ النبوة والرسالة، وفي سياق شبيه يواصل (بروكلمان) تصوراته بشأن النبي ﷺ فيرفض حادثة الإسراء والمعراج ويرى أنها تخيلات وأضغاث أحلام كثيرا ما تحصل للعرافين فيقول:" وأمثال هذه الرؤى في أثناء تهجد العرّاف معروفة ثابتة لدى بعض الشعوب البدائية."[60]، فهو كما ذكرنا آنفا منهج يقوم على عدم تصديق المعجزات ببساطة لأنه منهج لا يؤمن بالأديان ويراها منافسا له، وهو يريد أن يستحوذ على الجموع وأن يجعلها تابعة له، ولم ينفرد وات وبروكلمان وحدهما بتوظيف هذا المنهج بل تبعهما في ذلك (فلهاوزن) فهو كذلك استند إلى هذا المنهج الذي لا ينطبق تماما على أحداث السيرة النبوية وبالتالي كل نتائجه بشأنها ستكون كارثية على المنهج وعلى صاحبه، "ففلهاوزن" يجرد محمدا ﷺ من النبوة، ولا يرى فيه إلا رجلا سياسيا كان همّه الوحيد في مكة الوصول السياسي إلى سدة الحكم، فثار على المجتمع هناك ورفضه، وحصل له ما طلب في المدينة فأصبح رئيسا وحاكما سياسيا فيقول في هذا الشأن:" كان محمد في مكة ثائرا على قومه، مخالفا لما هم عليه، أما في المدينة فقد بلغ ما كان يرمي إليه. ولقد أحدث هذا تغييرا كبيرا لا مجرد فرق ظاهري. وذلك لأن المعارضة تتغير دائما عندما تصل إلى الرئاسة... وعلى هذا صار الطابع السياسي يزداد بروزا والطابع الديني يزداد تراجعا."[61]، فالملاحظ لقوله يراه يجرد محمدا ﷺ من صفة النبوة، ويراه بنظرة المحلل المعاصر للواقع في نظرة علمانية صرفة رجلا سياسيا كباقي الساسة الذين يناضلون من أجل الوصول إلى سدة الحكم بممارسة المعارضة أوّلا ثم بممارسة السلطة حين يحصلون على ما أرادوا، وهذا تلفيق كبير وخطأ جسيم في دراسة التاريخ والسيرة، هذا إذا علمنا أن قريشا هي من عرضت السلطة والمال والجاه على محمد ﷺ إلا أنه رفضها جميعا في سبيل إقامة دعوته وإقرار رسالة ربه، أما ما يمكن رد موقف فلهاوزن إليه، هو أنه استعجل في إطلاق حكمه لما رأى كيف صارت زمام الأمور إلى محمد ﷺ في مجتمع المدينة وبعده في كامل البيئة العربية، وذلك بسبب النبوة

([59]) ينظر عبد الله محمد الأمين النعيم، الاستشراق في السيرة النبوية، ص49.

([60]) المرجع السابق، ص49.

([61]) فلهاوزن، تاريخ الدولة العربية، تر: عبد الهادي أبو ريدة، عن طريق عبد الله محمد الأمين النعيم، الاستشراق في السيرة النبوية ، ص 5-6.

المنارة للاستشارات

والرسالة وتمكين الله له، ولأن الإسلام بطبعه ليس دينا من أجل الممارسة الدينية الرهبانية الصرفة، بل هو دين ونظام حياة متكامل، إلا أن النظرة العلمانية الضعيفة لدى هذا المستشرق وغيره هي من حالت دون الوصول إلى مثل هذه الحقائق، أو على الأقل غض النظر عنها وتجاهلها إن عُلِمَت حقيقتها لديهم.

هذه فقط بعض المواقف والرؤى الاستشراقية للنبي عليه الصلاة والسلام ولسيرته، ودارت جلها في نفس السياق الطاعن والمثير للشبهات بهدف تشكيك المسلمين في دينهم، وفي حامل الرسالة إليهم، لتكون بذلك النتيجة المرجوة ألا وهي الابتعاد عن الإسلام، ولكن هيهات أن يحصلوا على ما طلبوا، فالإسلام باقٍ، وهم ومناهجهم إلى زوال.

فقد كانت مثل هذه التلفيقات سواء فيما يخص القرآن أو السيرة أو كتب العلوم والمعارف الإسلامية المختلفة، سببا حقيقيا في نهضة الأمة الإسلامية بعلمائها ومفكريها نهضة جادة من أجل تمحيص هذا التراث – ولا ندخل فيه القرآن وصحيح السنة- لأنهما لا يدخلان في التراث وإنما الأول كلام الله تعالى، والثاني أقوال النبي عليه الصلاة والسلام وأفعاله، وإنما ما دار حولهما من كتابات هو المقصود بالتراث، وقد أعاد العلماء والمفكرون المسلمون قراءة هذه الكتابات ولاسيما التي مسها تحقيق المستشرقين وترجماتهم، وبيان ما فيها من شبهات وتلفيقات وأكاذيب وتزييفات، ودحضها.

ج/<u>الموقف من العلوم الإسلامية</u>:

لم يخلُ هذا الميدان كذلك من اهتمامات المستشرقين، ولم يفتهم أن يسيلوا فيه الحبر ويملؤوا به رفوف المكتبات سواء في الغرب أو في بلادنا، فلطالما "شكّل التراث الفكري الإسلامي مادة عملية للاستشراق"[62] فقد أثارت العلوم الإسلامية انشغالات المستشرقين، وعنوها بالدراسة والتحليل وفي كثير من الأحيان بالكذب والتلفيق والتزوير، وأحيانا أخرى بالرفض والتعتيم، ذلك لأنهم كما ألفناهم يرون أن الحضارة الإسلامية لم تنتج شيئا من المعرفة وإن حصل ووجدت عندهم معرفة فأصلها العلوم الغربية، ومثاله ما حصل مع أعمال ابن رشد الفلسفية، فقد رفض المستشرقون أن يكون للمسلمين رجل من نوعية ابن رشد في الفلسفة، يناقش أرسطو وأطروحاته، فذهبوا إلى نفي العروبة عنه والإسلام حين اعتبروه "إرثا يونانيا تحت إسم: Averroes

(62) حسين علي الحاج حسن، الإسلام والاستشراق، ص197.

المنارة للاستشارات

Latinu"[63] وعلى الرغم من أنه أثّر كثيرا في الفكر الأوروبي الذي كان تحت سيطرة الفكر الأفلاطوني، وأعطى الأوروبيين القدرة على "التمرد العقلي الذي كلّف علماء اللاهوت كتوماس الإكويني جهدا هائلا لتثبيت سلطان الكنيسة المتزعزع."[64] إلا أنهم لم يمنحوه الفضل عليهم بل اعتبر ناقلا فقط للتراث اليوناني والإغريقي إليهم، وهم في هذا فقط يكابرون ويعاندون ويرفضون الإعتراف بأنّ من أسباب النهضة الأوروبية الفكر الإسلامي ومن بينه فلسفة ابن رشد، كما أنهم لو فحصوا التاريخ جيدا لوجدوا أن الفكر اليوناني الذين يدعون بأنهم إرثهم، لم يخل من العلوم والمعارف الشرقية السائدة حينه من فارسية وبابلية ومصرية وآشورية وهذا ما أثبتته الدراسات التاريخية والحفريات التي " أظهر التنقيب الحديث عن وجود نظرية فيثاغورس المشهورة مرقومة على لوح طيني آشوري قرب بغداد"[65]، ومع هذا فإن المسلمين لم ينقلوا فقط التراث اليوناني بل زادوا عليه الكثير وصبغوه بالصبغة الإسلامية عن طريق العلوم ذات الصلة بالعقيدة الإسلامية، فنسبت البدع والضلالات لابن رشد من طرف هؤلاء المستشرقين غيضا من أنه أثر في فكرهم، واتهم بالإلحاد وإنكار علم الله تعالى بالجزئيات، والدعوة إلى اللاّدين، والكفر بالنار، فقال عنه (أرنست رينان):" حامل لواء الإلحاد، وذلك لأن اسمه قد محا على الخصوص أسماء فلاسفة الإسلام الآخرين فصار ابن رشد ممثلا للعرباوية- Saracenisme التي كانت تقترن بالإلحاد على رأي القرون الوسطى"[66] فقد تنافس الأوروبيون والمستشرقون في نعت ابن رشد بكل الأوصاف الشنيعة، لا لشيء إلا لأنه أنسى العالم في أرسطو وفلسفته، ومن أسباب رفض المستشرقين للفلسفة الإسلامية، أو أي علم تجريبي من طرف العرب أنهم من " الجنس السامي، الذي يتميز بعدم القدرة على التفكير الفلسفي وتناول الأمور المجردة، وفقط اليونانيون من لهم هذه القدرة"[67] وهذا فصل عنصري لا مثيل له، قائم على أساس التصنيف الاستئصالي، وذهب المستشرقون أبعد من هذا حين وصفوا الإسلام بأنّه دين سامٍ لا يشجع على العلم

([63]) ينظر عبد الأمير الأعسم، دراسات في الاستشراق، دار الفرقد، ط1، دمشق، سوريا، 2011، ص182.

([64]) قاسم السامرائي، الاستشراق بين الموضوعية والافتعالية، ص 77.

([65]) المرجع السابق، ص77.

([66]) نقلا عن المرجع السابق نفسه، ص81.

([67]) ينظر محمود حمدي زقزوق، الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع، ص108.

المنارة للاستشارات

والمعرفة، فيقول (جوتيه):" هذه هي عقلية الدين الإسلامي وروحه، في حقيقتها ودقائها وما ظهر منها وما بطن؟ هو دين سام بحت: مفرق وموحد بأضيق المعاني، وغير عقلي، ولا يتفق والتفكير الحر، وقليل الميل إلى التصوف ولو في عهده الأول على الأقل، ومن ثم في روحه الحقة."[68] ، فعلى الإسلام أن يطبق هذه الأطروحات الاستشراقية أو ينعت بهذه النعوت، أمّا الغريب في الأمر أن يعتبر "أرسطو شيخ الفكر الإسلامي، واعترف له الأزهر بهذه المنزلة، وبهذه الدعوى دعا لطفي السيد وطه حسين وغيرهما"[69] ، ولا شك أنها دعوة باطلة وكاذبة، ومناهضة للحقيقة، إذ كيف يمكن لأرسطو أن تنسب له مشيخة الفكر الإسلامي، وهو عن الإسلام وفكره في تواز لا يلتقيان.

ومن المواضيع التي أثارت المستشرقين كذلك علاقة الشريعة بالقانون الروماني، ويقولون بأنها تأثرت به وأخذت عنه، ومن أمثال هؤلاء " جولد تسيهر، وفون كرمر، وشيلدون آموس، يذهبون إلى أن الشريعة الإسلامية مستمدة من القانون الروماني، فهذا القانون هو المصدر الذي أقام فقهاء المسلمين على أساس من قواعده الكيان القانوني للشريعة الإسلامية."[70] وهذا ليس بالجديد على الاستشراق الذي ذكرنا بأنه لا يترك شيئا من التراث الإسلامي إلا ورفضه أو نسبه إلى إرثه، وفي هذا المجال يقول (شيلدون آموس):" إن الشرع المحمدي ليس إلا القانون الروماني للإمبراطورية الشرقية معدلا وفق الأحوال السياسية في الممتلكات العربية."[71] والدليل على هذا في رأي هذا المستشرق وغيره أن محمدا ﷺ كان عالما بالقانون الروماني وحتى الفقهاء المسلمون من بعده، وذلك لما رأوا أنه تشابه بين الشريعة والقانون الروماني، إلا أن التشابه لا يفسر دائما على أنه تأثر، بل يمكن أن يكون سببا فيه تشابه البيئات أو الأحوال الاجتماعية مما أدى إلى تشابه التشريعات، ويحل (الدكتور السنهوري) هذا الجدال حين "يبين أن القانون الروماني بدأ عادات وازدهر عن طريق الدعوى والإجراءات الشكلية، أما الشريعة الإسلامية فمصدرها الأساس كتاب الله تعالى، ومن بعده الإجماع والقياس

([68]) جوتيه، المدخل لدراسة الفلسفة الإسلامية، تر: محمد يوسف موسى، القاهرة، 1945، ص176.

([69]) ينظر أنور الجندي، سموم الاستشراق والمستشرقين في العلوم الإسلامية، دار الشهاب للطباعة والنشر، باتنة، الجزائر، 1987، ص203.

([70]) المرجع السابق، ص106.

([71])المرجع السابق نفسه، ص107.

المنارة للاستشارات

وغيره من مصادر التشريع"[72] فهذا أفضل رد ودليل على بطلان الدعوى التي روج لها المستشرقون حول مصدرية الشريعة الإسلامية.

هذا قليل من كثير في جانب موقف الاستشراق من العلوم الإسلامية، إلا أن المقام لم يسع لذكرها جميعا، فقد تعرضت كثير من العلوم الإسلامية لمثل هذه الطعون والتلفيقات، كعلم الاجتماع الإسلامي، وعلم النفس، وعلم الكلام، والرياضيات، وعلم الفلك، وغيرها والتي تعالى الاستشراق من أن ينسب الفضل فيها لعلماء المسلمين.

سادسا:الاستشراق والدعوة إلى التجديد:

لقد دعا الاستشراق والمستشرقون إلى تجديد الفكر الإسلامي صراحة، أو من خلال أعمالهم التي أنتجوها حول هذا الفكر ، وذلك وفقا لتصوراتهم ونظرتهم لعالم إسلامي جديد، يتماشى مع أفكارهم وفق النمط الغربي، فالواقع يثبت " أن للمؤسسة الاستشراقية تأثيراتها العميقة الفاعلة في الفكر الإسلامي الحديث، فقد أثر المستشرقون إلى أبعد حدود التأثير في بناء بعض العقول الإسلامية النشطة، وصياغة رؤيتها الخاصة عن الإسلام ذاته، مع التمكين لها، وإذاعة فكرها ونشره على أوسع نطاق."[73] ،وقد كانت هذه الرؤية للإسلام من طرف هؤلاء المستشرقين قائمة على أساس الفكرة القائلة "بأن الإسلام صورة متحجرة في وضع مناهض للحداثة"[74] ، ولم يتفرد المستشرقون في هذا، بل كان لهم من يردد أفكارهم من بني جلدتنا، الذين أشار إليهم القول السابق والذي عني فيه المستشرقون ببناء عقول إسلامية نشطة، وهم هؤلاء المفكرون العرب والمسلمون، والذين رأوا أنه لابد للعالم الإسلامي أن يتغير، وأن يتماشى مع القيم والثقافة الغربية، والنموذج الحضاري هناك، وهذا كله من آثار الغزو الاستشراقي للعالم العربي، والذي كانت بداياته مع حملات الابتعاث العلمي إلى أوروبا والتي ابتدأت مع (محمد علي) حاكم مصر وكانت من بنات أفكار الاستشراق [75] الذي كان يريد تدجين العالم العربي والإسلامي واحتوائه عن طريق إنشاء أجيال لا يربطها بالإسلام إلا الاسم،

([72]) ينظر المرجع السابق نفسه، ص109.

([73]) عبد الله الشرقاوي، الاستشراق في الفكر الإسلامي المعاصر، من موقع HTTP//KOTOB.HAS.ITK، ص21.

([74]) ينظر صامويل هنغتون، في كتاب: إيف كلفارون، إدوارد سعيد الانتفاضة الثقافية، تر: محمد الجرطي، صفحات للنشر والتوزيع، 2013، ص174.

([75]) ينظر محمود محمد شاكر، رسالة في الريق إلى ثقافتنا، ص139 وما بعدها.

المنارة للاستشارات

فنتج عن هذا الابتعاث والتدجين أجيال من المتغرّبين والعلمانيين من المحامين والأطباء والمعلمين وغيرهم على شاكلة طه حسين الذي تأثر بأستاذه (مارجوليوث)، ورفاعة الطهطاوي، وسلامة موسى وقاسم أمين وحسين مؤنس وغيرهم، بل أكثر من هذا، ذهب الاستشراق إلى تغريب المدارس والمناهج التعليمية في البلاد الإسلامية "فوضع (دنلوب) أسس التفريغ الكامل لطلبة المدارس المصرية، أي تفريغ الطلبة من ماضيها "المتدفق في دمائها مرتبطا بالعربية والإسلام..."[76] فهذا نموذج لعمل الاستشراق في العالم العربي بتغيير المفاهيم والنظم التعليمية، فمثلا في مصر تم إفراغ الطلبة المصريين سواء الذين درسوا في مصر أو في أوروبا من ماضيهم الإسلامي كما يقول (محمود محمد شاكر)، و مُلِئوا بالماضي الفرعوني الذي يتنافى مع القيم والأسس الإسلامية، أما عن الدعوة الصريحة للتجديد في الفكر الإسلامي من طرف هؤلاء المستشرقين، فنجدها واضحة وبشكل كبير، فبعد الحرب العالمية الثانية تغيرت الحركة الاستشراقية بشكل واضح، خاصة حين انتقلت ريادتها إلى أمريكا، " فعدّل المستشرقون والمبشّرون خططهم في تغيير أفكار الأفراد المسلمين إلى وجهة نظرهم وأفكارهم، إلى تغيير الإسلام نفسه بإعطاء تفسيرات له مختلفة تماما، وشنّ حركة منظمة لإعادة بنائه من الداخل، وقد تبّنت معظم كتابات المستشرقين المعاصرين هذا الطريق."[77]، فهذا رأي صريح لصاحبته ومن عاصرها في أنهم يريدون تجديد الإسلام ويطالبون بذلك، وتجديد كل المعارف المرتبطة به، وعلى رأسها الفكر الإسلامي، ولكن هذا التجديد المطلوب من طرفهم ليس تجديدا يخدم الإسلام وأهله، وإنما تجديد كما ذكرناه سابقا يتماشى مع النظرة الغربية لعالم إسلامي جديد، يكون وديعا ويقبل أي شيء غربي، أو يعيش تحت وصايته الفكرية، وحين نقول أن الاستشراق الحديث أصبح تحت الوصاية الأمريكية، فنحن نجد مثلا (مؤسسة راند- Rand Corporation) الأمريكية وهي من أكبر المؤسسات الفكرية في العالم تنشر تقريرا عام 2007 بعنوان (بناء شبكات مسلمة معتدلة) بدعوى التجديد في العالم الإسلامي، وصناعة إسلام ملائم للتوجّهات الأمريكية [78]، كما يشير هذا التقرير إلى دعم

([76]) المرجع السابق نفسه، ص148.

([77]) مارجرت ماركوس، Islam and orientalism، 1981، ص20-24، نقلا عن عبد الله الشرقاوي، الاستشراق في الفكر الإسلامي المعاصر، ص53.

([78]) ينظر باسم خفاجي، استراتيجيات غربية لاحتواء الإسلام، قراءة في تقرير راند2007، المركز العربي للدراسات الإنسانية، السنة الأولى، العدد رقم 4، ماي 2007، ص6.

المنارة للاستشارات

حركات وفرق إسلامية على غيرها، فمثلا يطالب بتدعيم المذهب الحنفي وتثقيف أتباعه، ليقفوا في وجه الحنابلة، وتشجيع الصوفية والشيعة [79]، فهنا نلاحظ عملية الانتقاء لدى هؤلاء المستشرقين وتوجهاتهم في صناعة فكر إسلامي يتماشى مع توجهاتهم، وفي هذا الصدد يصرّح معدّ التقرير(أنجل راباس) قائلا:" إنّ الصراع الجاري في العالم الإسلامي اليوم هو صراع فكري."[80]، ويهتم هذا التقرير باحتواء الإسلام احتواء تامّا، والمشي في طريق تغييره، وإن صعب ذلك يتم إعادته إلى المسجد وتقطع صلته بالمجتمع وبالحياة العامة، حتى لا يؤثر على أتباعه.

كما نجد في سياق الدعوة إلى التجديد من طرف هؤلاء ما صدر عن (برنارد لويس) المستشرق الأمريكي المعاصر والفاعل في السياسات الأمريكية الحديثة والمعاصرة، حين ينتقد ضمنيا ما يراه جمودا في الإسلام وفكره، وذلك تحت طائلة اعتبار المسلمين كلمة **بدعة** - والتي هي في العربية تدل على الابتكار- تحمل مفهوما سلبيا، أو على أقل تقدير تثير الريبة يتضمنها الاقتداء بالكافر[81] فنحن نلاحظ كيف يسعى إلى تقزيم كل جهود المسلمين في قراءة موروثهم قراءة علمية وهو ما تم حقيقة، ويجعل لفظة التجديد تعني البدعة، وهو خلط للمفاهيم والمعاني اللغوية، لأنه لا يريد التجديد على الطريقة الإسلامية المحافظة على أصالتها، بل يريد تجديدا في غاية التغريب والعلمنة، حتى (برتران بادي) في كتابه الموسوم بـ: (الدولتان الدولة والمجتمع في الغرب وفي دار الإسلام)، حين ناقش آراء ثلاثة من أقطاب الإصلاح في العصر الحديث (الأفغاني، ومحمد عبده، ورشيد رضا) والتي كانت لهم نزعات إصلاحية بفكرة الجامعة الإسلامية للأفغاني ورسالة التوحيد لعبده، والخلافة لرضا، يقول:" كان ينبغي أن تستكمل هذه الدعوة المتجدّدة للوحدة بتجديد القوانين، عن طريق تكييفها مع العالم الحديث، وفق مسيرة تؤدي هذه المرّة، إلى رؤية عن الحداثة، أكثر تشددا وأكثر إثارة للنزاع ، لأنها تتضمن، من خلال عملية إعداد الضوابط والمقاييس اختيار سياسيين واختيار نماذج محددة للمجتمع."[82]

([79]) ينظر المرجع السابق، ص8.

([80]) المرجع نفسه، ص11.

([81]) ينظر برنارد لويس، Comment 'Islam a decouvert l'Europe, Paris , La Decouverte, 1984,p.229 نقلا عن برتران بادي، الدولتان، الدولة والمجتمع في الغرب وفي دار الإسلام، تر: نخلة فريفر، دار الفارابي، بيروت، لبنان، 2004، ص74.

([82]) برتران بادي، الدولتان، الدولة والمجتمع في الغرب وفي دار الإسلام، ص85.

المنارة للاستشارات

، فهنا يريد من عملية التجديد أن تكون عملية استئصالية للموروث الفكري الإسلامي، بإحلال منظومة قوانين جديدة، بطبيعة الحال سيكون منبعها الغرب صاحب الحداثة والتجديد، كما يلمّح إلى أن تبني الفكر الشيوعي الماركسي الاشتراكي في العالم الإسلامي وجه من أوجه التجديد لأن الإسلام والاشتراكية يتفقان في نقاط عدة كالأخوة والمساواة وانتقاد البرجوازية وغيرها، وهو هنا ينقل عن عبد الله العروي [83] فهو يربط بين الماركسية والإسلام في بعض النقاط بينهما ثم يقول بأن الاشتراكية والبعثية فشلتا في البلاد العربية، ونحن نستنتج أنه بفشلهما وهما يشبهان الإسلام فالإسلام كذلك فاشل وفي حاجة إلى تجديد ودماء تضخ في شرايينه، كما يعتبر (ماكس فيبر) -عالم الاجتماع والذي اعتمد على الدراسات الاستشراقية- أن الإسلام والمجتمعات الإسلامية راكدة، وضعيفة ومتأخرة لافتقارها إلى مؤسسات حقيقية وأساسية مثلما حدث في الغرب، وبالتالي هذا الافتقار سبب الركود [84] وعلى إثر هذا وجب في نظره أن يبني المسلمون مؤسسات حقيقية على الطريقة الغربية التي تحمي الممتلكات بعيدا عن السلطة الأبوية في أنظمة الحكم الإسلامية، كما نجد كذلك المستشرق (هاملتون جب) الذي يعتبر الإسلام إيمانا حيا، ولكن "صياغاته التقليدية ولاهوته النظامي وتبريراته الاجتماعية غير مرنة ومحتضرة" [85] ويذهب في هذا باعتباره العودة إلى التقاليد الإسلامية أمر مشين ولا يمكن أن يأتي بالحداثة والتجديد، وهو يضع خطة للنهوض بالإسلام الذي انعطف انعطافة خطيرة قبل ألف عام حين رفض الفكر العقلاني الإغريقي – في نظره- تقوم هذه الخطة على:" أن يعيد العقل الإسلامي تشكيل نفسه جوهريا باعتناق العقلانية التي اعتنقها الغرب قبل ذلك بزمن طويل، والتي تقوم عليها قوة علمه وفلسفته وتقنيته"[86] فـ(جب) لم يشذّ عن سابقيه من المستشرقين أو معاصريه أو طائفة التغريبيّين في أنه إذا أراد الإسلام وفكره أن يعيشا في العالم الحديث فعليهما أن يجعلا الغرب قدوة لهما، وحتى في البيئة الإسلامية إذا بحثنا فسنجد أنّ المفكرين التطوريين الحداثيين، الذين لا يعتبرون أنفسهم تلاميذ الاستشراق، بل يرفضونه ويتنقدونه -كما ذكرنا في بداية

([83]) ينظر المرجع نفسه، ص92.

([84]) ينظر زكاري لوكمان، تاريخ الاستشراق وسياساته- الصراع على تفسير الشرق الأوسط، تر: شريف يونس، دار الشروق، القاهرة، مصر، 2007، ص156.

([85]) ينظر المرجع السابق، ص188.

([86]) المرجع السابق نفسه، ص189.

المنارة للاستشارات

البحث- أمثال (محمد أركون) يرى أنه لابد للفكر الإسلامي أن يتحرر من القيود التي تقيده " فكرنا لا يزال غاطسا في قسم كبير منه داخل نظام الفكر الخاص بالقرون الوسطى... نحن على عكس الأوروبيين لا نزال نخلط بين الأسطوري والتاريخي...كل شيء عندنا مقدس وكل شيء مرعب أو محاط بهالة من الهيبة المقدسة"[87] ووصفته للخروج من القداسة هي نقد الأصولية لا الدين ككل بالعقل والمنهج التاريخي الحديث [88] ، فهذه نظرة أركون الذي يرفض الاستشراق ولكن لا يمتنع عن تطبيق المنهج التاريخي الحديث على الموروث الإسلامي القديم.

هذه ليست كل نماذج دعوات التجديد للفكر الإسلامي في الاستشراق، لأنّ المقام ضيق لحصرها جميعا، ولكن الملاحظ منها أنها تقريبا سارت في نفس الطرح الذي يهدف إلى تجديد الفكر الإسلامي بالطّريقة الغربية الحديثة، ونحن نعتقد أن هذا لا يستقيم لاختلاف البيئات وتمنّع الموروث الفكري الإسلامي عن مثل هذه المناهج وهذه الرؤى.

([87]) محمد المزوغي، في نقد الاستشراق، المحور أركون/ صالح، ص21.

([88]) ينظر المرجع نفسه، ص21.

المنارة للاستشارات

خاتمة:

وختاما يمكن القول أنه وبعد اطلاعنا على حركة التجديد والدعوة إلى التجديد في الفكر والعلوم الإسلامية، بل وكل الموروث الإسلامي، سواء من طرف المسلمين، أو من طرف المستشرقين، أنّ هذه العملية لا يمكنها بأي حال من الأحوال أن تكون تحت الطلب وبشكل خاص - إذا كان الطلب استشراقيا- لأنه وبالاطلاع على تاريخ الحركة الاستشراقية نجد أنها لا يمكنها تحت أي ظرف أن يهمّها العالم الإسلامي ناهيك عن فكره وعلومه وتجديدها، وإنما ما يهمّها في هذا أن تقوّض الإسلام وتحدّ من توسّعه، وأن تحمي المجتمعات الغربية من امتداده الذي ما انفكّ يتوقف عن الامتداد، بإحاطة هذا الفكر الإسلامي بكثير من الخرافات والتلفيقات والأكاذيب والتزوير والتحريف، وإذا ما أريد له التجديد في مرحلة ما فيجب أن يكون هذا الإصلاح والتجديد وفق المناهج الغربية الحديثة، التي أثبتت فشلها في كثير من الأحيان، كما يعبر عن ذلك (محمد أركون) بالنسبة للمنهج الفيلولوجي.

والملاحظ كذلك بعد عملية الاستقصاء هذه، أن الاستشراق لم يدّخر جهدا منذ بداياته في التشكيك في الإسلام والسيرة والعلوم المترتبة عنهما، بل وأكثر من ذلك حاول جهده تحييد المسلمين عن دينهم، بشتى الأباطيل والاتهامات، مع اعتراف المستشرقين أنفسهم أنه من مهامهم صناعة إنسان مسلم جديد وفق النموذج الغربي الحديث، ومن خلال عملية بحث بسيطة في أعمال المستشرقين يحسّ الباحث من خلال إنتاجاتهم أن الإسلام لم يكن شيئا ولم ينتج معرفة على مرّ تاريخه، إذ نتيجة لهذا وبعملية حسابية بسيطة أربعة عشر قرنا تساوي صفرا بهذا الشكل.

فما يجب أن نركز عليه من خلال هذا البحث، أنه وإن كانت هناك حاجة للتجديد في الفكر الإسلامي فيجب أن يكون ذلك نابعا من داخل البيئة الإسلامية ووفقا لمتطلبات الإسلام، وبالحفاظ على الثابت الأساسي فيه ألا وهو الإسلام كما أنزله الله تعالى على نبيه صلى الله عليه وسلم، ولا يجب أن يكون التجديد من أجل خدمة مصالح غير إسلامية، وزيادة على هذا يجب على الباحثين المسلمين أن تكون لهم ردة فعل تجاه هذه العملية التزويرية الكبيرة للتاريخ الإسلامي، بإعادة قراءة مورثنا، وتصحيح ما يحتاج التصحيح، وتجديد ما يمكن التجديد فيه وفق البئية والمناهج الإسلامية، ومن ثم تكون عملية عكسية بفرض نفس المناهج على الإنتاج الغربي ورؤية مدى صموده أمام هذه

المنارة للاستشارات

النماذج التي اخترعوها، والمقارنة حينها بين المنتوجين الفكريين – الغربي والإسلامي- أيهما أصدق وأصح.

قائمة المصادر والمراجع:

القرآن الكريم برواية حفص.

الحديث النبوي.

1- ابن منظور، محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط1، ج3، د.ت.

2- أبو داود، سليمان بن الأشعث السجستاني الأزدي، سنن أبي داود، تح: محي الدين عبد الحميد، دار الفكر، بيروت، كتاب الملاحم، باب "ما يذكر في قرن المائة"، ج4.

3- أجنتس جولد تسيهر، المذاهب الإسلامية في تفسير القرآن، تر: د.علي حسن عبد القادر، المركز الأكاديمي للأبحاث، ط2، 2016.

4- أحمد محمد جاد عبد الرزاق، فلسفة المشروع الحضاري بين الإحياء الإسلامي والتحديث الغربي، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، هيرندن، فيرجينيا، و.م.أ، ط1، ج2،1995.

5- إدوارد سعيد، الاستشراق، تر: كمال أبو ديب، مؤسسة الأبحاث العربية، القاهرة، ط1، 2005.

6- أنور الجندي، الإسلام والثقافة العربية في مواجهة الاستعمار، مطبعة الرسالة، مصر.

7- أنور الجندي، سموم الاستشراق والمستشرقين في العلوم الإسلامية، دار الشهاب للطباعة والنشر، باتنة، الجزائر، 1987.

8- أنور محمود زناتي، زيارة جديدة للاستشراق، مكتبة الأنجلو مصرية، ط1، 2006.

9- إياد علي الهاشمي، البعد الديني في الاستشراق الغربي، دار الفكر، عمّان، الأردن، ط1، 2016.

10- إيف كلفارون، إدوارد سعيد الانتفاضة الثقافية، تر: محمد الجرطي، صفحات للنشر والتوزيع، 2013.

11- أيمن بن أحمد بن حسين العقبي، الاستشراق وتجديد الدين، مجلة جامعة طيبة: للآداب والعلوم الانسانية، السنة الثانية، العدد3، 1435هـ

المنارة للاستشارات

12- باسم خفاجي، استراتيجيات غربية لاحتواء الإسلام، قراءة في تقرير راند2007، المركز العربي للدراسات الإنسانية، السنة الأولى، العدد رقم 4، ماي 2007.

13- برتران بادي، الدولتان، الدولة والمجتمع في الغرب وفي دار الإسلام، تر: نخلة فريفر، دار الفارابي، بيروت، لبنان، 2004.

14- برهان غليون، نقد السياسة الدولة والدين، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط3، 2004.

15- جوتيه، المدخل لدراسة الفلسفة الإسلامية، تر: محمد يوسف موسى، القاهرة.

16- حسين علي الحاج حسن، الإسلام والاستشراق بين البنية الاجتماعية والاجتهادات الشرعية، منشورات زين الحقوقية، بيروت، لبنان، ط1، 2017.

17- خالد إبراهيم المحجوبي، الاستشراق والإسلام (مطارحات نقدية للطروح الاستشراقية)، أكاديمية الفكر الجماهيري، بنغازي، ليبيا، 2010.

18- خزندار عابد، حديث الحداثة، المكتب المصري الحديث، القاهرة، 1990.

19- زكاري لوكمان، تاريخ الاستشراق وسياساته- الصراع على تفسير الشرق الأوسط، تر: شريف يونس، دار الشروق، القاهرة، مصر، 2007.

20- سلطان بن عمر بن عبد العزيز الحصين، الاستشراق الفرنسي والسيرة النبوية، المدينة المنورة، ط1، 1436هـ

21- عبد الأمير الأعسم، دراسات في الاستشراق، دار الفرقد، ط1، دمشق، سوريا، 2011.

22- عبد الله الشرقاوي، الاستشراق في الفكر الإسلامي المعاصر، من شبكة الانترنت الدولية من HTTP//KOTOB.HAS.ITK الموقع الإلكتروني:

23- عبد الله محمد الأمين النعيم، الاستشراق في السيرة النبوية، المعهد العالي للفكر الإسلامي، ط1، 1997.

24- عبد المنعم فؤاد، من افتراءات المستشرقين على الأصول العقدية في الإسلام، مكتبة العبيكان، ط1، 1422هـ

25- علي بن إبراهيم النملة، الاستشراق والدراسات الإسلامية، مكتبة التوبة، الرياض، ط1، 1998.

المنارة للاستشارات

26- عماد الدين خليل، المستشرقون والسيرة النبوية، دار الثقافة، الدوحة، قطر، 1410هـ.

27- عمر فروخ، الاستشراق في نطاق العلم وفي نطاق السياسة، في الإسلام والمستشرقون، تأليف نخبة من العلماء المسلمين، جدة، عالم المعرفة، 1985، دط.

28- فاروق عمر فوزي، الاستشراق والتاريخ الاسلامي، الأهلية للنشر والتوزيع، الأردن، عمان، 1998، ط1.

29- الفيروز أبادي، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، القاهرة، مصر، ط1، د.ت.

30- قاسم السامرائي، الاستشراق بين الموضوعية والافتعالية، دار الرفاعي للنشر والطباعة والتوزيع، ط1، 1983.

31- مالك بن نبي، إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي الحديث، دار الإرشاد للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، 1969.

32- محمد البهي، الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي، مكتبة وهبة، ط4، القاهرة، مصر.

33- محمد مزوغي، في نقد الاستشراق، المحور أركون/ صالح، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، 2017.

34- محمود حمدي زقزوق، الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، دار كتاب الأمة، قطر، ط2، 1983.

35- محمود محمد شاكر، رسالة في الطريق إلى ثقافتنا، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، ط2، 1427هـ/2006م.

36- نجيب العقيقي، المستشرقون، ج1، ط4، دار المعارف، القاهرة.

37- ول ديورانت: قصة الحضارة، تر: محمد بدران، دار الجيل، د.ت، د.ط، م4، ج2.

38- ويليام مونتجمري وات، محمد في مكة، تر: عبد الرحمن الشيخ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2002م.

المنارة للاستشارات